

السيمياء والتحديدات

دولابارت

ترجمة : د. محمد حمود

يتعلق موضوع هذا الحديث بمسائل عدة، إلا أنها خاصة بالسيمياء أو ما يسمى بعلم الدلالات المدنية . لكن لا بد من الإشارة، إلى أن من ينبغي أن يضع مخططاً سيميائياً للمدينة، عليه أن يكون في الوقت نفسه سيميائياً (مختصاً بعلم الدلالات)، وكذلك عليه أن يكون جغرافياً، مؤرخاً، مهندساً مدنياً، ومن المحتمل أحياناً أن يكون محلاً نفسانياً .

من الواضح، أن هذه المواصفات لا تندرج على بل وبالكاد، أكون سيميائياً - والأفكار التي أود طرحها لا تتعدى طروحات هاوٍ، بالمعنى الاشتقاقي لهذه الكلمة: الهاوي للرموز هو الذي يهوى الرموز، والهاوي للمدن هو الذي يهوى المدن؛ والحقيقة أنا معجب بالرموز والمدن معاً . وهذا الإعجاب المزدوج يدفعني للاعتقاد، وربما مع بعض التخمين بإمكانية وضع نظرية سيميائية للمدينة . فضمن أية شروط، أو بالأحرى احترازا، بل ما هي المقدمات المبدئية التي تتيح لنظرية سيميائية مدنية لأن تكون ممكنة ومعقولة ؟

هوذا موضوع الأفكار التي أود طرحها . بادئ ذي بدء، أريد التذكير بنقطة معروفة كثيراً، وبالتالي تشكل نقطة البداية . ومفادها: إن المجال الإنساني عامة (وليس فقط المجال المدني) كان دائماً معبراً وذا معنى، فالجغرافيا العلمية وخاصة الخرائطية الحديثة منها، يمكن اعتبارها نوعاً من التعطيل أو الطمس للرقابة التي تفرضها الموضوعية على الدلالات (الموضوعية كشكل من أشكال التصور) .

وقبل أن أتحدث عن المدينة، سأستعرض بعض وقائع التاريخ الثقافي في الغرب، وبالتحديد تلك العصور اليونانية القديمة: حيث السكن الإنساني (L'Oekoumène)، كالذي نشاهده من خلال الخرائط الأولى للجغرافيين

اليونان: انكسيمندر (Anaximandre) - وهيكتاتيه (Hecatée)، أو من خلال الخرائطية الفكرية أو الذهنية لرجل ك هيرودوت (Herodote)، والتي تؤلف خطاباً حقيقياً للأمكنة بتأثراته وتناقضاته، بمبناه وبدائله، فأية خارطة محققة بيانياً من عصر (هيرودوت)، مبنية كلغة، كجملة، كقصيدة، مبنية على التناقض: بلاد حارة وبلاد باردة، بلاد معلومة وأخرى مجهولة: ومن ثم فهي مبنية على التعارض بين الإنسان من جهة، والوحوش والخرافات من ناحية أخرى، وهكذا...

وإذا تخطينا حالياً المجال الجغرافي إلى المجال المديني بالتحديد، نشير إلى أن مفهوم التماثل في التساوي (Isonomie) الذي وضعه كليستينز (Clisthène) - أثينا في القرن السادس، يشكل (أي هذا المفهوم) تصوراً بنيوياً واقعياً، بواسطته يغدو المركز في المدينة، الوحيد والمفضل. طالما أن المواطنين بمجملهم على علاقات متفقة ومتناقضة في آنٍ واحد مع هذا المركز^(٢). في ذلك العصر كان التصور للمدينة معبراً كلياً، بخلاف التصور الضروري للتوزيع المديني المرتكز على الوظائف والأعمال الخاصة بالمدن، الذي ظهر متأخراً والذي رجح أيضاً إلحاح في أيامنا هذه. هذا من شأنه أن يذكّرنا بالنسبية التاريخية الخاصة بمفهوم المجالات الدالة.

أخيراً، في الماضي القريب، مؤلف بنيويّ يدعى ليفي ستروس (Levi-Strauss) كتب في مؤلفه عن (المدارات المحزنة للسيمياء المدينية) (Tristes Tropiques). وبالرغم من عدم استفاضة، إلا أنه فيما يخص قرية (البورورو) (Bororo) فقد درس مجالاتها من وجهة نظر دلالية محضة.

من المستغرب أنه، بجانب هذه التصورات المعبرة بوضوح عن المساحة الآهلة بالسكان، نجد أن الأعمال النظرية للمتخصصين بمحل التمدين، لم تعطِ حتى الآن، إن لم أكن متطرفاً، سوى حينٍ مقتضب لمسائل المدلولية^(٣).

بالتأكيد هناك استثناءات. فبعض الكتاب تكلموا عن المدينة من خلال مصطلحات دلالية. وهناك واحد من هؤلاء، حسب رأيي، شرح بشكل أفضل هذه الطبيعة الرئيسية الدالة في المجال المديني، هو فيكتور هيجو (Victor Hugo) في (Notre-Dame de Paris)؛ حيث كتب فصلاً شيقاً بذكاء مرهف. هذا سيقول ذلك. هذا معناه الكتاب وذاك معناه البناء، بتعبيره هذا برهن هيجو، بطريقة حديثة تقريباً عن إدراك ومفهومية للبناء الفني العظيم، وكذلك للمدينة. وبمعنى آخر، أدركها ككتابة وتدوين للإنسان في الحيز أو المكان.

هذا الفصل عند فيكتور هيجو، مخصّص للتنافس بين طريقتين في الكتابة، الكتابة على الحجر وأخرى على الورق. وأخيراً، توضّحت هذه المسألة عن الكتابة وبشكل فعلي عند الفيلسوف جاك دريدا (Jacques Derida). ومن بين مختصي التمدين، لا نجد من يتحدث عن المدلولية، سوى اسم واحد ظهر في هذا المضمار، وهو الأميركي كوين لينش (Kewin Lynch) وكأنه الأقرب لهذه المسائل الدلالية المدينية، في حدود اهتمامه

بتصوُّر المدينة من خلال قراء هذه المدينة . لكن في الواقع، تبقى أبحاث لينش، من وجهة نظر دلالية شبه غامضة؛ فمن جهة ضَمَن عمله معجماً للدلالية (مثلاً يخصص في معجمه حيزاً واسعاً من أجل إتاحة قراءة سهلة للمدينة، وهذا بالطبع مؤشر مهم جداً بالنسبة لنا). وكذلك جيد، يملك الإحساس والاستيعاب للوحدات المخفية أو غير الظاهرة عيانياً. (لينش، هذا حاول أن يجد في المجال المديني الوحدات غير المتعاقبة، حيث كل النسب أو الأحجام تشبه الفونيمات (phonèmes) ودلالات الألفاظ). هذه الوحدات يسميها (لينش Lynch) طرق، حفاظاً، أحياء، مراكز للمراجعة. هذه المجموعات للوحدات باستطاعتها أن تصبح، وبسهولة، فئات دلالية. إلا أن (لينش Lynch) من ناحية أخرى، وبالرغم من معجمه هذا، احتفظ بتصوُّر للمدينة أقرب للشكلانية (Gestaltiste) منه إلى البنيوية. خارج إطار هؤلاء الكتاب الذين اقتربوا بوضوح من علم دلالات المدينة، نشهد وعياً متزايداً لوظائف الرموز في المجال المديني. فمن خلال دراسات مدينية تتركز على التقديرات أو التخمينات الكمية وعلى الاستفتاءات المبررة، نشر، ولو على سبيل الذاكرة، إلى الحافز النوعي الواضح للرمزية، والتي غالباً من خلالها بتنا نفسر أحداثاً أخرى. مثلاً، نجد في مجال التمدُّن تقنية سائدة نسبياً: تدعى التصويرية المصطنعة. هذه الأخيرة فيما لو استعملت بإطار عقلي تحريبي ومستقيم إلى حد ما، تقود إلى تعميق المفهوم للنموذج والذي هو مفهوم بنيوي أو على الأقل ما قبل بنيوي. وفي مجال آخر، ومن خلال دراسات خاصة بحقل التمدُّن تتطلب العمل على الدلالية؛ نكتشف رويداً رويداً، بأن هناك نوعاً من التعارض بين الدلالية ونظاماً آخر خاصاً بالظواهرات؛ ونتيجة لذلك غدت الدلالية مالكة لنوعية من المتعذر تبسيطها. مثال على ذلك: بعض المختصين بدراسة المدن، أو بعض الباحثين الذين درسوا التصميم المديني ملزمون بملاحظة مفادها، أنه في بعض الحالات يوجد تعارض بين وظيفة جزء من المدينة، لنقل «حي» مثلاً، وبين ما أسميه بالمحمول الدلالي لهذا الجزء من الحي، أي (قدرة الحي الدلالية). كذلك لاحظوا ببعض السذاجة (ولكن ربما يجب البدء بالسذاجة)، أن (روما) تُظهر تعارضاً مستمراً بين الضرورات الوظيفية للمدينة الحديثة من جهة، وبين المحمول الدلالي المتصل بها من خلال تاريخها. هذا التعارض بين الدلالية والوظيفية من شأنه أن يُشكِّل فقدان أمل للمتخصصين في حقل التمدُّن. إضافة إلى ذلك، هناك تعارض بين الدلالية والعقل، أو على الأقل بين الدلالية وذلك العقل الآلي الحاسب؛ الذي يود أن تكون جميع العناصر الخاصة بالمدينة مسترجعة أو مستعادة بذات النمط الواحد؛ بل وبحسب التصميم.

وهكذا بات من الواضح، أن المدينة نسيج مؤلف، ليس فقط، من عناصر متساوية من خلالها نتمكن من إحصاء وظائفها، لكنها مؤلفة من عناصر صلبة وأخرى محايدة؛ أو كما يقول الألسنيون، من عناصر محددة وعناصر غير محددة. (نحن نعلم بأن التعارض بين الرمز وغياب الرمز، بين الدرجة الكاملة والدرجة الصفر،

يشكل واحداً من السيروتات الكبرى لِمَثَل المدلولية)؛ وبشكل أوضح كل مدينة هي مالكة لهذا النوع من الإيقاع، وهذا ما لاحظته لينش (Lynch) في كل مدينة، وابتداءً من اللحظة التي تغدو فيها مأهولة من الانسان ومعمولة بواسطته. هذا الإيقاع الرئيسي للمدلولية يشكل التعارض، التعاقب، والتجاور للعناصر المحددة والعناصر غير المحددة.

وأخيراً، نشير إلى أن هناك تعارضاً نهائياً بين المدلولية وبين الواقعية نفسها، أو على الأقل بين المدلولية وتلك الواقعية للجغرافيا الموضوعية الخاصة بالخرائط. على سبيل المثال، التحقيقات المتابعة لختصي علم النفس الاجتماعي (Psycho Sociologues)، أثبتت بأن حين متجاورين في حال اعتمادنا الخارطة، أي على الواقع والموضوعية، في اللحظة التي يحصلان بها على دالتين مختلفتين، نراها يتجزأان وبشكل جذري في صورة المدينة: فالمدلولية مُعاشة في تعارضٍ كاملٍ مع الموضوعية. المدينة خطاب، وهذا الأخير يشكل لغة حقيقية: المدينة تحاكي سكانها، ونحن بدورنا نحاكي مدينتنا. المدينة حيث نتواجد في سكننا لها، في اجتيازها وكذلك في تأملها.

فالمسألة إذن، مفادها أن ينبثق عن المرحلة المجازية الواضحة مصطلحاً مثل لغة المدينة (Langage de la ville). فمن السهل أن نتحدث مجازياً عن لغة للمدينة، كما نتكلم عن لغة للسبيل، أو لغة للزهور. الوثبة العلمية الحقيقية ستتحقق عندما يكون باستطاعتنا التحدث عن لغة للمدينة دون مجاز. هنا يمكن القول أن فرويد (Freud)، هو أول من تحدّث عن لغة للأحلام، مفرغاً هذه الأخيرة من معناها المجازي بغية إعطائها معنى واقعياً.

ونحن أيضاً، علينا بدورنا أن نعرف كيف نعبر من المجاز إلى التحليل، عندما نتحدث عن لغة للمدينة ؟

مرة ثانية أعود إلى المتخصصين بدراسة الظاهرة المدنية، وذلك لأنه بالرغم من ابتعادهم عن هذه المسائل الدلالية المدنية، إلا أنهم لاحظوا (أشير إلى ما أيدته التحقيقات العلمية) بأن (المعطيات الضرورية في العلوم الاجتماعية تقدّم شكلاً موافقاً إلى حدّ ما، من أجل دمج وتوحيد النماذج).

وهكذا، حتى لو أدخلنا بصعوبة، في نموذج ما، المعطيات التي نتزوّد بها من خلال (علم النفس، الاجتماع، الجغرافيا، والديمقراطية الإحصائية البشرية) من أجل موضوع المدينة، إلا أنه ومن الأكيد تبقى تقنية أخيرة تنقصنا، تلك هي تقنية الرموز. ولهذا فنحن بحاجة لطاقة علمية جديدة من أجل تحويل هذه المعطيات. وبمعنى آخر العبور من المجاز إلى وصف وتعريف الدلالية. عند ذلك يستطيع علم الدلالات (بمعناه الاصطلاحي الواسع)، وربما بتطور غير متوقع، أن يقدم لنا يد العون.

لا أود، هنا، ذكر السبل لاكتشاف علم الدلالة المدينية . لكنه من المحتمل، أن هذه الطرق تتم بواسطة تحليل النص المديني إلى وحدات، ومن ثم توزيع هذه الوحدات في مصنفات شكلية، وفي المرحلة الثالثة إيجاد قواعد لتنسيق وتشكيل هذه النماذج والوحدات .

سأحصر الكلام في ملاحظات ثلاث لا علاقة لها مباشرة بالمدينة، إلا أنها باستطاعتها التوجّه بشكل مفيد نحو علم دلالي مديني، في حدود رسمها لموازنة سريعة لعلم الدلالات الحالي، آخذة بحسبانها أن المنظور الدلالي ليس ثابتاً .

الملاحظة الأولى: مفادها أن الرمزية (Symbolisme) (الواجب فهمها كخطاب عام، فيما يخص التعبيرية أو المدلولة) ليست مصممة حالياً، على الأقل وبشكل عام، كتطابق منتظم بين الدالات والمدلولات . وبمعنى آخر، إن مفهوم الدلالة الذي كان سائداً ورئيسياً منذ سنوات، بات قديماً وملغياً كونه مفهوماً معجمياً اصطلاحياً، أي عبارة عن مجموعة من اللوائح الخاصة بالمدلولات والدالات المتطابقة .

هذا النوع من الأزيمات الخاصة باستهلاك المفهوم المعجمي، يتكرّر في مجالات عدة للأبحاث . ويتأكد ذلك من خلال الدلالية المستفرقة عند مريدي شومسكي (Chomsky)، أمثال كاتز (Katz) و فودور (Fodor) اللذين أثارا موجة عارمة ضد المعجم أو المصطلح العلمي .

وإذا تجاوزنا المجال الألسني إلى مجال النقد الأدبي، نجد ما يسمى بالنقد الكلامي الموضوعي الذي رُجع واستمر خمس عشرة أو عشرين سنة في فرنسا، والذي شكّل بدوره الدراسات الرئيسية والأساسية لما نسميه بالنقد الحديث الذي يسود، وبشكل محدود، مستعيداً نموذجاً على حساب المدلولات التي اقترح تحليلها وتفكيك رموزها . أمّا في حقل التحليل النفسي، فلا نستطيع التحدث عن الرمزية مصطلحاً بعد مصطلح . ويتضح ذلك في الجزء الضعيف في أعمال فرويد (Freud): بحيث إنه معجم تحليلي نفساني غير معقول . وذلك ما أفقد الثقة بكلمة رمز (Symbole)، لأن هذا المصطلح ترك افتراضاً حتى أيامنا هذه، مفاده أن العلاقة الدالة تتركز على المدلول، وأكثر من ذلك على وجود هذا المدلول . فأنا شخصياً أستعمل كلمة «رمز» وكأنها تتصل بتنظيم دلالي تركيبى أو مثالي نموذجي، إلا أنه لا يعود إلى علم المعاني أو الدلالي .

لذلك، يجب إقامة التمييز الواضح بين المحمول الدلالي للرمز، والطبيعة التركيبية أو النموذجية الخاصة بالرمز ذاته .

وكذلك الحال، سيكون من المحال تمثّل مشروع معجمي للمدلولات المدينية في حال وضعنا الأماكن، والأحياء، والوظائف من جهة، والمدلولات من جهة ثانية . أو بالأحرى في حال وضعنا من ناحية، الأماكن

المعطاة كدالات، ومن الناحية الثانية، الوظائف المعطاة كمدلولات. فلائحة الوظائف التي تنهض بأحياء مدينة ما، هي معروفة منذ أمدٍ طويل؛ فنحن نجد بشكل واضح ثلاثين وظيفة لحيٍّ ما في مدينة (حي في وسط مدينة مدرّوس بشكل جيد من وجهة نظر اجتماعية). فلائحة الوظائف هذه، ممكن أن تكون متكاملة، غنية - منتقاة، إلّا أنها لا تشكّل سوى مستوى بسيط للغاية من أجل التحليل الدلالي؛ هذا المستوى يحتمل إعادة النظر فيه. ليس فقط بسبب الثقل والضغط التاريخيين، ولكن لأن المدلولات وبالتأكيد أشبه بالكائنات الوهمية الأسطورية في أقصى غموضها، بحيث تصبح هذه المدلولات في لحظة ما دالات لشيء آخر.

فالمدلولات تعبّر، والدالات تركزن أو تبقى ساكنة. التفتيش عن المدلول لا يشكّل أكثر من مرحلة مؤقتة عابرة. ودور المدلول، في حال توصّلنا للإحاطة به، هو أن يحمل إلينا فقط نوعاً من الشهادة على حالة محددة من الانتشار الدلالي. من ناحية ثانية، يجب الإشارة إلى أننا نصف بأهمية متزايدة مدلول الفراغ بدل فراغ المدلول. وبمعنى آخر، فالعناصر مستوعبة كدالات بسبب أوضاعها المتلازمة أكثر من محولها وفحولها. فمدينة (طوكيو) كواحدة من المدن الأكثر تعقيداً على الصعيد المديني. في حال تعمّدنا تصوّرها من وجهة نظر دلالية، نراها تملك نوعاً من المركز. إلّا أن هذا المركز الممثل بالقصر الملكي والمحاط بجفرة عميقة مغطاة بالخضرة، هو معاش كمرکز فارغ.

بشكل عام، أثبتت الدراسات الخاصة التي أقيمت على الخلية المدنية لمدن مختلفة بأن النقطة الرئيسية في مركز المدينة (كل مدينة تملك مركزاً)، والتي نسميها «الخلية الصلبة»، لا تشكل الذروة لأية فعالية خاصة، كونها تشكّل نوعاً من المجمع (Foyer) الفارغ من الصورة التي حققتها الجماعة عن المركز.

الملاحظة الثانية، مفادها أن الرمزية يجب أن تكون محددة أساساً، كما هي الحال في عالم الدالات وعالم العلاقات المتبادلة، خصوصاً تلك العلاقات التي لا يمكننا أبداً أن نوحدها في معنى ملآن ونهايي. من الآن وصاعداً، من وجهة نظر التقنية الوصفية، فقد استنفذ التوزيع للعناصر، أي توزيع الدالات، بطريقة ما الكشف الدلالي.

هذا هو حال الدالات عند شومسكي (Chomsky) وفودور (Fodor) وكاتز (Katz)، بل وحتى التحليلات الخاصة عند، ليفي ستروس، التي تركز على وضوح العلاقة؛ إلّا أن هذه الأخيرة ليست علاقة متماثلة لكنها متجانسة (هذا الحل توصل إليه في كتابه المعروف قليلاً عن التوتمية (Totemisme). هكذا نكتشف أنه، بصدد إقامة علم للدلالة المدنية، علينا أن ندفع قدماً وبدقة متناهية الشق الدلالي. من أجل ذلك، ومن خلال تجريبي كهو، يتضح لنا أنه في بعض المدن يوجد مجالات تتيح اختصاصات مندفعة للوظائف. كما هو الحال مثلاً في السوق الشرقي، حيث الشارع الخاص بدبّاغي الجلود، أو السوق الخاص بصانغي المجوهرات. في

طوكيو، بعض المقسمات في الحي الواحد، نجدها متجانسة من حيث الوظيفة. وعلى الصعيد العملي، نجد أيضاً في طوكيو حانات ومطاعم صغيرة وأمكنة للهو والتسلية. لذلك، المفروض الذهاب أبعد من هذا المظهر الأولي، وبالتالي عدم تحديد الوصف الدلالي للمدينة من خلال هذه الأحادية، بل المفروض تحليل وتفكيك البنيات الصغيرة بنفس الطريقة التي نعزل بها مقاطع صغيرة من جملة طويلة.

فالمطلوب إذن، التعمّد على إقامة التحليل الهادف الذي يقود إلى هذه البنيات، وبالمقابل يجب أن نعوّد أنفسنا على تحليل أوسع، يصلنا حقيقة هذه البنيات. جميعنا يعلم، أن طوكيو مدينة متعددة الأنواء، كونها تحتوي على عدة محاور تحيط بخمسة أو ستة مراكز: لذلك يجب معرفة التمييز الدلالي لهذه المراكز، بالرغم من اتصافها كمحطات لسكك الحديد. وبمعنى آخر، النموذج الأفضل للدراسات الدلالية في المدينة سيعتمد على الأقل في بداياته، وحسب اعتقادي، على الجملة الكامنة في الخطاب الكلامي: وبذلك نجد أنفسنا أمام الحدس (Intuition) القديم الذي أشار إليه فيكتور هيجو بقوله: المدينة هي كتابة، فالذي يتحرّك في المدينة، أي الذي يستعملها (هو نحن جميعاً). وبذلك نشكّل نوعاً للقارئ الذي يقطع مقاطعاً من المعطى المدني بحسب ارتباطاته وتحركاته، بغية جعلها متزامنة أو آنية؛ فنحن جميعاً في موقع القارئ لثة مليون قصيدة لـ كينو (Queneau) بحيث إننا سنجد الشعر مختلفاً في حال غيّرنا بيتاً واحداً من القصيدة. إذن عندما نكون في مدينة ما، دون أن نعلم، فنحن نشبه، إلى حد ما، هذا القارئ قبل تعمّقه بالرؤيا.

الملاحظة الثالثة، مفادها أن علم الدلالة حالياً، لم يطرح أبداً، وجود المدلول النهائي. معنى ذلك، أن المدلولات جميعها وبشكل دائم دالات لأشياء أخرى. والعكس صحيح. واقعياً، في أيّ مجال ثقافيّ معقّد أو حتى في مجال علم النفس، نجد أنفسنا دائماً أمام سلسلة من المجازات غير النهائية. حيث المدلول دائماً في تقلّصٍ وضمور، أو يصبح المدلول ذاته دالاً.

هذا التركيب، كما تعلمون، بدأت تظهر ملامحه في حقل التحليل النفسي بواسطة ج. لاكام (G. Lacan)، وكذلك في حقل الدراسات الخاصة بالكتابة. لدرجة أن هذا التركيب بات من المسلّمات. إذا طبقنا هذه الأفكار على المدنية، عندها سنكون بدون شك باتجاه وضع بُعدٍ أو أهمية لم أشاهدها أبداً من قبل، على الأقل في حقل الدراسات والتحقيقات التمديدية.

هذا البُعد، سأسميه بالبعد الغرامي أو الغزلي (Erotique)، فغزل المدينة هو المعرفة التي يمكن أن نستخلصها من الطبيعة المجازية اللانهائية للخطاب المدني. أشير إلى أنني أستعمل كلمة الإروسية (Erotisme) بمعناها الواسع النطاق؛ فمن السخرية أن نمثل أو نشير إلى مدينة ما بأنها ماجنة، من خلال حي واحد خاص بهذا النوع من الملذات والشهوات. وذلك لأن مفهوم مكان اللذة هو إحدى الخدع الأكثر تهديداً للوظيفية المدنية، كونه

يشكّل مفهوماً وظيفياً وليس مفهوماً دلالياً. ثم إنني أستعمل، دون تمييز الإروسية (Erotisme) أو الاجتماعية (socialité). فالمدينة أساساً ودلالياً، تشكّل المركز للالتقاء بالآخر؛ ومن أجل ذلك يصبح المركز نقطة التجمع في كل مدينة. مركز المدينة مُشاد قبل كل شيء بواسطة الشباب، وعندما يشرح هؤلاء تصوّرهم للمدينة، نجد أن لديهم ميلاً لتقليص وحصر أو إيجاز وتكثيف لهذا المركز. فالمركز في المدينة مُعاش كمكان لتبادل النشاطات الاجتماعية؛ وسأتعهد القول بأن هذه العلاقات شبه غريزية بالمعنى الواسع لهذا المصطلح.

بالإضافة لذلك، مركز المدينة يُعاش أيضاً كساحة، حيث تتفاعل وتتلاقى القوى الهدامة والقوى المتصدعة والقوى اللبية (متعلقة باللعب والتسلية). وهذا ما يتضح من التحقيقات الكثيرة عن المركز. في فرنسا مثلاً، يوجد مجموعة من التحقيقات الخاصة بالانجذاب الفعّال لباريس على حساب الضواحي، ولقد لاحظنا من خلال هذه التحقيقات، أن باريس، كمركز وكمحيط دائرية، كانت دائماً معاشة على الصعيد الدلالي، كمكان مفضل ومستحب من الآخرين (أي منا نحن)، وكمكان للتسلية واللهو. وبالعكس ذلك، كل ما هو بغير مركز أو كل ما هو ليس بغيري (أي ما يخص الآخر في مقابل الأنا) كالعائلة والإقامة والهوية، لا يشكّل بدقة مجاًلاً أو مساحة للتسلية واللهو. من الطبيعي، أنه فيما يخص المدينة، يجب إيجاد الحلقة المجازية، الحلقة التي تقام على غريزة الحب (L'Eros)؛ بل يجب التفتيش بشكل خاص عند الفئات السكانية العديدة، وكذلك في العادات الكثيرة عند الإنسان. مثل النظام الغذائي، والتسويق، اللذان يؤلفان بشكل حقيقي النشاطات الغريزية في المجتمع الاستهلاكي.

سأتطرق مرة ثانية إلى مثال طوكيو، حيث المحطات الكبرى التي تشكّل نقاط التقاء للأحياء الرئيسية هي نفسها تؤلّف محلات تجارية كبيرة. فمن الواضح، أن المحطة اليابانية، الموقف - المخزن (Station-boutique) تحمل بشكل رئيسي مدلولاً فريداً، مدلولاً غريزياً، تسويق أو التقاء. ومن ثم، يجب استكشاف الصور العميقة للعناصر المدنية؛ مثل على ذلك: تحقيقات عديدة أوضحت الوظيفة التصويرية لمجرى الماء (Cours) حيث يُعاش هذا الأخير في كل مدينة، كنهر، كقناة، كماء. الواقع هناك علاقة بين الطريق والماء. ونحن نعلم جيداً، بأن المدن التي يصعب تفسيرها الدلالي والتي ما زالت تشكّل صعوبات تأقلمية للسكان، هي المدن المحرومة من المياه، بمعنى آخر، أنها المدن الخالية من البحار والأنهار ومجاري المياه والتي بسبب ذلك تعكس صعوبات حياتية أخرى.

أخيراً، أريد القول، إن من خلال طرحي لهذه الملاحظات، لم أتعرض لمسألة المنهجية. أما عن السبب، فمفاده أنه إذا رغبتنا في مشروع لعلم الدلالات المدنية، فالاقتراب الأفضل برأيي، كما هي الحال في باقي المشاريع الدلالية، أي علينا أن نكون أكثر، وأن نحاول حل رموز المدينة - حيث نعيش ونتواجد - منطلقين إذا

لزم الأمر من العلاقة الشخصية، وحيث تتضمن تلك الرموز مجموعة القراءات لختلف فئات القراء (لدينا نسقاً كاملاً من القراء المقيمين في المهجر).

وبذلك تمثل لغة المدينة. ولهذا أقول، إنه من الأفضل عدم الاعتماد على مضاعفة التحقيقات أو الدراسات الوظيفية للمدينة. بل المطلوب مضاعفة القراءات لهذه المدينة. وللأسف حتى وقتنا الحاضر، الكتاب وحدهم من أعطونا بعض الأمثلة عن هذه القراءات، وبانطلاقنا من هذه القراءات أو من إعادة تأليف لغة أو تشريع للمدينة. سيكون باستطاعتنا التوجه نحو وسائل ذات طبيعة أكثر علمية، كالتفتيش عن الوحدات، أو علم النحو... الخ. لكن نذكر دائماً بأنه من غير الواجب علينا تثبيت أو تجميد هذه المدلولات للوحدات المكتشفة، وذلك لأنه تاريخياً، غالباً ما كانت هذه المدلولات غامضة ومطمون بها وصعبة التطبع.

وهكذا، كل مدينة لها مبنية إلى حد ما من خلالنا، بل وبواسطتنا. وذلك على مثال زورق (Argo) حيث كل قطعة بمفردها من الزورق لا تشكل الأساس والأصل، لكنها تبقى دائماً، ضمن الزورق. آرغو (Argo)، تعني مجموعة المدلولات السهلة القراءة والسهلة التطابق.

من خلال هذا الجهد للاقتراب من الدلالية المدنية، علينا الإدراك والفهم للعبة الرموز، وكما علينا أن نعي بأن أية مدينة من المدن، لها تركيب وبناء. ولكن ليس المطلوب ملء هذا التركيب، ذلك لأن المدينة قصيدة، كما قلنا سابقاً، وكما أوضح فيكتور هيجو، بصورة أفضل من أي مهم آخر؛ إلا أن هذه القصيدة ليست شعراً كلاسيكياً يركز على موضوع معين. إنها القصيدة التي تنشر الدال أو تبسطه. بحيث يتشبث علم الدلالات المدنية بهذا الانتشار ويغنيه.

المراجع

- 1 — Conférence du 16 Mai 1967 organisée par l'institut Français, de L'institut d'histoire de l'architecture de l'université de Naples et la revue op. cit.
- 2 — Sur clisthène et L'isonomie. cf. vidal-Naquet et leveque, clisthène l'athénien.
- 3 — cf. F. Choay. L'Urbanisme: utopies et réalités. Édition du seuil, Paris, 1965.
- (★) Ockoumène: nom employé par certains géographes pour designer la terre habitée ou une aire d'habitat. Le mot gree signifie: toute la terre habitée.